QADAYA 3/3/2012 3/2/12 10:08 PM Page 1

هوامش

عبدالله الأيوبي Ayoobi99@gmail.com

الوئام الوطني ضحية للخطاب الطائفي

ليس هناك أدنى شك في أن مواقع التواصل الاجتماعي لعبت دورا لا يستهان به في تأجيج التلاسن الطائفي وزيادة درجة الاحتقان والتأثير السلبي في العلاقة المجتمعية بين مختلف مكونات الشعب البحريني خلال الأحداث المؤسفة التي عصفت بالبلاد منذ الرابع عشر من شهر فبراير من العام الماضي، وما أعقبها من تداعيات أسهمت هي الأخرى في تعميق الانقسام المجتمعي ووفرت الأرضية الخصبة للعابثين كي يمارسوا دورهم التخريبي، فكانت وسائل التواصل الاجتماعي تمثل بالنسبة إليهم فضاء واسعا وآمنا لمواصلة ممارساتهم الضارة بالنسيج الاجتماعي غير آبهين لما تحمله مثل هذه الممارسات من مخاطر مستقبلية تهدد النسيج المجتمعي برمته وتدفع بالوطن إلى مزيد من الانحدار الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

لكن المواقع الالكترونية للتواصل الاجتماعي ما كانت لتؤثر بقوة وتجلب الكثير من المشاركات الضارة بالنسيج الوطني لو لم يكن هناك صوت تخريبي مسموع قادته أصوات مسعورة استخدمت الوتر الطائفي في نهجها التخريبي، مثل هذه الممارسات الممثلة في الأصوات الطائفية المسموعة عبر منابر مختلفة، وأخطرها المنبر الديني، كان تأثيرها السلبي في العلاقات المجتمعية ومساهماتها في تأجيج التوتر والاحتقان الطائفي يفوقان بكثير تأثير قنوات التواصل الاجتماعي.

يعرف الجميع أنه من الصعوبة بمكان التحكم في وسائل التواصل الاجتماعي ومنع أو محاصرة الأصوات التخريبية التي تستخدم هذه التقنية العلمية الجبارة في أعمال تسيء إلى شعبها ومختلف مكوناته، مع الانتباه في الوقت نفسه لأهمية استخدام وسائل الاتصال هذه في توضيح الحقائق وحشد رأي عام أوسع يرفض المساس بالوحدة الوطنية والإساءة إلى أي من مكونات الشعب البحريني، ولكن العمل الأهم المطلوب هو التصدي لأصوات التأزيم المسموعة والعمل على محاصرتها ومنعها من مواصلة أعمالها التخريبية عبر استمرارها في بث خطاب الكراهية والتحريض الطائفي المقيت.

ثم أن الطريق الأقصر لمعالجة مسببات التوترات الطائفية هو وضع اليد على مصدرها المباشر، وهنا أعني الخطاب التحريضي العلني، وليس الالكتروني، فالخطاب الأول يمكن وضع اليد عليه مباشرة ومساءلة مردديه قانونيا، ذلك أن العمل الذي يقومون به يعتبر وفقا للقانون جريمة، بل انها جريمة لا تغتفر حيث انها تستهدف الوطن برمته وليس أفرادا أو مكونا من دون غيره، والتخاذل في مواجهة هذا الخطاب يضع المعنيين بالأمر في موقع المسئول عن التسبب في تخريب النسيج الوطني.

فالعلاقات المجتمعية بين مكوني مجتمعنا الرئيسيين بعد الأحداث الأخيرة ليست في أحسن حالاتها، ولم يكن أحد يتوقع أن تصل العلاقات إلى المستوى الذي نشاهده ونسمعه ونقرؤه في الوقت الحاضر حيث التراشق البذيء لا يتوقف خاصة عبر مواقع التواصل الاجتماعي حيث يمارس الشخص كامل حريته في اخراج ما في باطنه من نيات وأفكار تعكس حقيقة موقفه وما يؤمن به، يضاف إلى ذلك التحريض على المقاطعة الاقتصادية بين فئات من أبناء الوطن الواحد، وهو حالة سلبية جديدة تسبب فيها خطاب التجزيء الطائفي من دون غيره.

فالحالة التي وصلت إليها العلاقات المجتمعية بين مكونات مجتمعنا لم تكن بفعل الأحداث التي مرت بها البلاد وتمر بها في الوقت الحاضر وإنما المتسبب الرئيسي في ذلك هم أصحاب الأصوات الشريرة ودعاة الفتنة الطائفية ومروجو خطاب الكراهية الذين وجدوا في تلك الأحداث فرصة مواتية لإخراج ما في قريحتهم من نيات خبيثة، هدفها ليس فقط تخريب النسيج الوطني الجميل، وإنما التمصلح الذاتي من وراء ذلك.

لا شك أنه من شأن استمرار هذه الأصوات في ممارسة التخريب المجتمعي وتركها تعبث كما تشاء بهذا النسيج وعدم محاصرتها بخطاب وطني جامع وشامل يستند إلى الحقائق المجتمعية التاريخية القائمة والراسخة في تربة البحرين، من شأن ذلك كله أن يلحق الضرر بجميع مكونات المجتمع البحريني الذي عاش عقودا من الزمن في وئام وتلاحم وطنيين رغم كل الصعاب التي مر بها على مدى عقود من تاريخه المشترك.

فالأحداث وما رافقها من تداعيات وممارسات خاطئة بالإمكان معالجتها بغض النظر عن المدة الزمنية التي تستغرقها عملية المعالجة ولكن مهما يكن حجم أضرارها المادية والسياسية، فإنها لن تترك جرحا غائرا في المجتمع البحريني، فمثل هذه الأحداث تقع في مختلف دول العالم، خاصة في الدول ذات الحراك السياسي مع وجود أحزاب سياسية ذات منطلقات فكرية وعقدية مختلفة ومتناقضة أحيانا، أما الجرح الذي يسببه الخطاب التحريضي في الجسد الوطني فمن الصعب معالجته بين ليلة وضحاها.

في رحاب مجلس خليفة بن سلمان (٧)

أمننا الخليجي مرهون باتحادنا

بقلم:
د. نبيل العسومي

بينت الأحداث الكارثية التي مرت بها منطقة الخليج العقود الماضية بدءا باحتلال إيران الجزر الإماراتية واحتلال العراق الكويت ووصولا إلى المحاولة الانقلابية التي تعرضت لها مملكة البحرين العام الماضي بدعم مباشر ومعلن من إيران وحزب الله العراقي واللبناني، بينت أنه لا أمن ولا استقرار لهذه المنطقة وهي بهذه الصورة المتفككة فلا مناص من الاتحاد الكونفيدرالي بين دول المنظومة الخليجية بما يؤمن استقرارها والحفاظ على ثرواتها.

هذه الرؤية التي تختلج في قلب ووجدان كل خليجي مؤمن بعروبة هذا الإقليم ومستقبله الواحد الموحد، هي مدار فكر خليفة بن سلمان رددها كلما اجتمع مع المواطنين بمختلف فئاتهم مستذكرا الوقفة الخليجية عامة والسعودية خاصة مع مملكة البحرين سواء خلال المؤامرة أو قبلها أو بعدها فتلك الوقفة كانت بالفعل صمام الأمان الذي اسقط ورقة المؤامرة وأحبط أجندتها ومقاصدها اللعينة التي كانت معلنة صراحة في أبواق الدوار وأبواق القنوات الفضائية الإيرانية ويتجاوز عددها ١٨ قناة.

هذا الطموح الخليجي المشروع يعتبره خليفة بن سلمان حتمية تاريخية لابد من حدوثها لأن المبدأ الرئيس الذي اختبرته الشعوب قاطبة عبر التاريخ هو أن القوة في الوحدة والضعف في الانفراط فالتآمر الإيراني على وحدة الخليج وأمنه واستقراره مصدره الرئيس أن هذه الدولة التوسعية ترى هذه الدول منفردة ضعيفة رغم ما تمتلكه من موارد ضخمة تمكنها لو توحدت من أن تردع أي عدوان أو تهديد أو تطاول على استقلالها وعلى استقرارها الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي.

وقد عبر سموه الكريم في رحاب هذا المجلس العامر ليس عما يعتمل في قلوب وعقول المواطنين البحرينيين من أحلام ومشاعر وتطلعات فقط، وإنما عما يعتمل في هذه النفوس البحرينية الوفية من مشاعر الامتنان والاحترام والتقدير والشكر للملكة العربية السعودية وقيادتها وشعبها وخاصة لخادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود فتلك الوقفة السعودية المباركة بفاعليتها وقوتها ووضوح هدفها وكرمها ولا مشروطيتها كانت لحظة مهمة في تاريخنا المعاصر أسهمت بشكل واضح صريح في إحباط المؤامرة، كما أعلنت في رسالة مدوية لا لبس فيها أن المستقبل هو في الاتحاد وانه لا مناص أبدا من أن ننتقل من حالة التعاون التي استمرت أكثر من ٣ عقود إلى حالة الاتحاد التي تجمع فيها مواردنا البشرية وقوانا العسكرية ومواردنا الاقتصادية لنكون كما الشعوب الأوروبية ضمن منظومة الاتحادية تشمل وحدة السياسة الخارجية ووحدة القوة العسكرية والسياسات الأمنية ووحدة المنظومة الاقتصادية والمالية مع احتفاظ كل دولة بخصوصيتها وميزاتها السياسية.

إن هذه الرؤية التي يطمح إليها كل خليجي صادق ومخلص ومؤمن بوحدة هذا الإقليم واستقلاله هي ما يعبر عنه خليفة بن سلمان بوضوح في ملاحظاته وهذا الخليج الذي نجح بفضل أبنائه وجهودهم الخيرة خلال نصف قرن من الزمان على جميع الأصعدة ليس في حاجة إلى الأجانب ليعلموه كيف يعمل وكيف يطور منظومته الأمنية والاقتصادية والتعليمية، وإن كياننا الخليجي يحتاج إلى وحدة طاقاته ووحدة طموحه وإرادته التي يجب أن تقف سدا منيعا في مواجهة الأطماع الحقيقية من التي تزداد يوما بعد يوم وقد بينتها أزمة البحرين والمؤامرة التي حاكها المتآمرون والمتواطئون مع الخارج ، فلا سبيل لإيقاف مسلسل التآمر إلا بوحدتنا الخليجية كما عبر عن إرادتها وطموحها خليفة بن سلمان كما كان دائما مستجيبا ومتجاوبا مع طموحات هذا الشعب الطيب.

من مفكرة سفير عربي في اليابان

«الربيع العربي» والتاريخ الياباني (٢)

بقلم:
د. خليل حسن *

أدت تحديات العولمة السياسية، والاقتصادية، والتعليمية، إلى انتفاضة عالمية في عام ٢٠١٠، بدأت بثورة الشاي من شوارع مدينة نيويورك، لتنتقل إلى الحرائق في مدينة لندن، ولتمتد للشرق الأوسط، لتؤدي إلى تغيرات في أنظمة الحكم الجمهورية، من تونس حتى اليمن، وبإصلاحات اقتصادية وسياسية واجتماعية في الدول العربية، من الخليج حتى المملكة المغربية. وقد ربط الكثير من المفكرين هذه الانتفاضات بالتحديات الجديدة لمجتمعات العولمة الجديدة، وبتمكين الشباب، من خلال تكنولوجيا شبكات التواصل الاجتماعي على الانترنت، التي وفرت بيئة لتبادل الأفكار، وتخطيط وتنظيم الاعتصامات والمظاهرات، وليتفاعل البعض ليطلق عليها ثورات الربيع العربي، ويبقى السؤال لعزيزي القارئ: هل ممكن أن تتطور المجتمعات العربية من دون توافر الأعمال ذات الإنتاجية المبدعة؟ وهل تعلم عزيزي القارئ أن الشعب الياباني يفضل العمل الخاص المبدع، على الوظيفة الروتينية، فهناك أكثر من خمسة ملايين شركة، لشعب سكانه ١٢٨ مليونا، نصفه أطفال، ومراهقون، ومسنون؟ وهل من الممكن الاستفادة من التجربة اليابانية لتطوير تجربة ما يسمى الربيع العربي، وبأقل ما يمكن من الأضرار على الشعوب، واقتصاد بلدانها، وخاصة بعد أن بينت دراسة التاريخ أن الثورات والانتفاضات، مع الوقت، تأكل أطفالها؟ وهل سنشجع الشباب على العمل الخاص، ونوفر لهم الفرص لكي يناضلوا لإنشاء شركاتهم الصغيرة؟ أليس السبب الرئيسي لانتفاضة ما يسمى الربيع العربي، هو تحدي البطالة، التي تتجاوز ٤٠٪ بين شباب الوطن العربي؟

كتب الدبلوماسي، والشاعر العربي، نزار قباني، في قصيدته المشهورة «متى يعلنون وفاة العرب» يقول: «أنا منذ خمسين عاما.. أحاول رسم بلاد العرب.. رسمت بلون الشرايين حينا.. وحينا رسمت بلون الغضب.. وحين انتهى الرسم، سألت نفسي: إذا أعلنوا ذات يوم وفاة العرب...ففي أي مقبرة يدفنون؟ ومن سوف يبكي عليهم؟ وليس لديهم بنات..وليس لديهم بنون.. وليس هنالك حزن، وليس هنالك من يحزنون.. رأيت العروبة معروضة في مزاد الأثاث القديم.. ولكني.. ما رأيت العرب». لقد عاشت اليابان إرهاصات مماثلة للتاريخ العربي، فقد حارب البعض بشراسة لإفناء العرق الياباني، وقد أعلنوا، وبنشوة، وفاة اليابان، بعد إلقاء القنبلتين النوويتين، ومن دون إنذار. فلنكمل عزيزي القارئ دراسة التاريخ الياباني في القرنين التاسع عشر والعشرين، لنكتشف كيف أنقذ شعبها اليابان من الموت، لعلنا نستفيد للوقاية من إعلان وفاة العرب، وخاصة بعد انتفاضات، ما سمي، الربيع العربي.

في الثالث من شهر يناير ١٨٦٨، ألغي نظام أمراء الشوجن، وقام عساكر السموراي بتعزيز نظام الحكم الإمبراطوري، كما قووا سيطرتهم على الحكم في البلاد، وسمي الإمبراطور الجديد، الإمبراطور ماتسوهيتو. وكان شابا، لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وعين، بعد وفاة والده بطريقة غامضة، بعد أن اتهمت بعض العناصر المناوئة بتسميمه. وقد بدأت خلايا المقاومة ضد التغير الجديد، وأصبحت مدينة إيدو مركز المقاومة ضد الإمبراطور، كما استقر الزعيم المعارض، أنوموتو تاكاكي، في مقاطعة هوكايدو التي قطنتها قبيلة الإينو المنبوذة، ليقيد المقاومة، وحاول إعلان جمهورية جديدة منفصلة، وقد حصل الاعتراف من الأمريكيين، ولكن انتهت محاولته بالفشل. وفي عهد الإمبراطور الجديد، ماتسوهيتو، الذي سمي عهد ميجي (١٨٦٧-١٩١٢)، والتي تعني عهد التنوير، برزت اليابان كأمة قوية، بعد أن كانت حين ولادته في عام ١٨٥٢، بلدا معزولا ومتخلفا، وبنظام إقطاعي بدائي، وبه ٢٥٠ مقاطعة متحاربة، وتحت سيطرة عساكر الشوجن، لتتحول اليابان بقيادته، وبثورتها الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية، إلى قوة عظمى، ولتصبح حين وفاته دولة موحدة ومزدهرة. فقد أنهى عهد ميجي نظام الإقطاع، وألغيت طبقة العسكر السموراي، وشكلت حكومة مركزية قوية، لتبدأ التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية، كما طورت الحياة السياسية بعد أن طالب الشعب الياباني ببرلمان حر منتخب، وفعلا تم إعلان الإمبراطور برلمانا بمجلسين، مجلس نواب منتخب، ومجلس نبلاء معين من قبل جلالة الإمبراطور. وفي عام ١٨٨١ أنشئ الحزب الديمقراطي الليبرالي، وتلاه بعد عام، إنشاء حزب الإصلاح الدستوري، لتبدأ اتهامات المعارضة للحكومة بإبقاء السلطة المطلقة في يدها، وباسم الامبراطور. واستمر الشعب الياباني العمل بجد واجتهاد، وسجل انتصارات كبيره في الإنتاج، واشتدت المنافسة مع الغرب. وفي عام ١٩٠٩ كتب المفكر الياباني، سورو كارا، نقدا لمحاولة اليابان التحول إلى دولة عظمى، فقال: «انظروا لليابان.. تحاول جاهدة أن تشق طريقها لتكون قوة عالمية، فهي كضفدعة تحاول أن تنمو لتصبح بحجم البقرة، وطبعا ستنفجر، هذا الصراع يؤذيني ويؤذيك، فليس هناك وقت للاسترخاء». والسؤال المحير: هل فعلا ستنفجر اليابان؟

لقد خلف الإمبراطور يوشيهوتو والده في عام ١٩١٢، بعد موته من أختلاطات مرض السكري. ولم يكن الإمبراطور الجديد بصحة جيدة، فقد أصيب بالتهاب السحايا في صغره، وكان دائم المرض، وساءت حالته، ولم يتمكن تحمل مسؤوليات القصر الإمبراطوري، فتسلم ابنه هيروهيتو الحكم في عام ١٩٢١، وليتوج إمبراطورا بعد وفاة والده في عام ١٩٢٦. وقد سمي عهد الإمبراطور الجديد عهد السلم المجيد، ولكنه كان في الحقيقة حقبة حروب متتالية، فقد وافقت اليابان على أن تكون حليفة بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، ولكن لم يكن لها دور يذكر في الحرب، فاستغلت الفرصة بانشغال الحلفاء بالحرب، لتغزو الأجزاء المحتلة من قبل ألمانيا من الصين، والجزر المحتلة في المحيط الهادي. وقد كانت فترة انشغال الحلفاء بالحرب فرصة لنمو الاقتصاد الياباني، وبعد انتهاء الحرب تدهور الاقتصاد الياباني، وزادت النقمة ضد فساد، ما سمي الديمقراطية الغربية في اليابان، كما دعي العسكر للتوسع في الدول المجاورة، لتوفير الموارد الطبيعية اللازمة. ففي عام ١٩٣١ فجر الجيش الياباني حافلة قطار، واتهموا الصينيين، ليقووا قبضتهم على منشوريا الصينية، فسيطر العسكر على البلاد، ومن دون رقيب، مبررين تسلطهم لحماية اليابان من المستشارين الشياطين، الذين يحومون حول الإمبراطور، ولإنقاذ البلاد من السيطرة الغربية الفاسدة، حيث كانوا يؤمنون بأن الإمبراطور يجسد الإله، وهو سليل إلهة الشمس، أماتراسو، وشعب اليابان أبناء الإلهة، كما أن أرضها هي أرض الآلهة.

وقد بدأت ظهور أفكار فلسفية، لتبرير التوسع، لحل مشكلة التزايد السكاني، حيث لم يسمح الغرب لليابانيين بالهجرة أو المتاجرة في السوق الدولية، كما اعتقد البعض بضرورة الحرب لتخليص العالم من السيطرة الغربية، وبالأخص الأمريكيون. وقد تأثر بعض المسئولين من أراء راهب بوذي عاش في القرون الوسطى، سمي نشيرين، الذي نادى بالحرب العظيمة، لإنهاء جميع حروب المستقبل، كما أكدوا بضرورة حاجة اليابان للموارد الطبيعية، المتوافرة في الدول المجاورة، لتستطيع الاستعداد لهذه الحرب العظيمة مع الولايات المتحدة، بالرغم من أن الكثير من اليابانيين كانوا يعتقدون ضرورة استخدام الطرق السلمية، لقيادة الدول الآسيوية نحو مجابهة السيطرة الغربية في المنطقة. وقد برزت اليابان وبنجاح عام ١٩٣٦ بعد الأزمة الاقتصادية العالمية الخانقة، ولكن تبعتها عدة أزمات أخرى، فقد كان دخل معظم أفراد الشعب محدودا جدا، بينما كانت فئة صغيرة تستمتع بثراء فاحش، كما أن الزيادة السكانية أبرزت مشاكل أضافية معقدة. وأدى التقدم الصناعي إلى تقوية سيطرة الحكومة على المصانع والشركات، فعملت على فرض إرادتها، وحاولت التخلص من المنافسة الغربية، كما قوت سيطرة العسكر ضمن الحكومة. وفي عام ١٩٣٦، وقعت اليابان اتفاقية مع ألمانيا وايطاليا، لتبادل المعلومات حول تحركات السوفيت، ودخلت اليابان في عام ١٩٣٧ حرب ناجحة ضد الصين، بعد حادثة جسر ماركوبولو المصطنعة.

وفي عام ١٩٤٠ وقعت اليابان معاهدة دفاعية مع ألمانيا وايطاليا ضد أي اعتداء أمريكي، مع التأكيد بدعم اليابان في قيادة منطقة شرق آسيا. وقد شجع ذلك اليابان على غزو الجزء المحتل من فرنسا في الهند الصينية، مما أدى إلى فرض الولايات المتحدة الحظر على تصدير النفط، والحديد، وبعض المواد الضرورية الأخرى، لليابان. وفي عام ١٩٤١ وبعد الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي، توغلت اليابان في الهند الصينية، فقامت الولايات المتحدة بتجميد جميع ممتلكات اليابان في أمريكا، ومنعت أي بضاعة أمريكية من دخول اليابان، كما قرر الرئيس روزفلت، وبصفة غير رسمية، قصف المصانع اليابانية لتدمير آلية الصناعة الحربية. وتحت ضغوط نقص الطاقة في البلاد، وعدم توافر الموارد الطبيعية، قررت اليابان الانسحاب من الهند الصينية، ولكن أصرت الولايات المتحدة على ضرورة الانسحاب من الصين أيضا، فلم يجد اليابانيون إمامهم إلا خيار الحرب، بعد أن توقعت اليابان النصر، كانتصارها من قبل على السوفيت، لتمنع السيطرة والتوسع الأمريكيين في المنطقة.

وفي السابع من ديسمبر ١٩٤١ بدأت اليابان الحرب بضرب الجيش البريطاني في كتو بورا بدولة «مالي»، وتبعتها بعد تسعين دقيقة ضرب الأسطول الأمريكي «ببيرل هاربر»، الذي أدى إلى جرح وقتل مئات الأمريكيين، وتدمير جزء كبير من أسطولهم وطائراتهم الحربية. واستمرت اليابان في غزوها بالتالي للفلبين، وتايلاند، وجوا، وهنكونغ، وبرنو، وسنغافورة، وسومطرا، وتيمور، وبالي، وباتافيا، وروجن، وجاوا. وفي السابع من شهر مايو عام ١٩٤٢، هزمت اليابان أول مرة في معركة بحر الكورال، لتستمر الهزائم متتالية مع بدء معركة الميدوي، لتقرر اليابان وقف مخططاتها لغزو كلدونيا الجديدة، وفيجي، وسامو، واستراليا، ونيوزيلندا. وفي الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٤٤، انهزمت اليابان في معركة «ليت» في الفلبين، مع خسارة كبيرة في أسطولها الحربي، بالرغم من استخدامها الطائرات الانتحارية بطياري «رياح الإله»، الكاماكيز.

وفي اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٩٤٥، بدأ الأمريكيون الهجوم على المدن اليابانية، وعلى رأسها مدينة طوكيو، مما نتج عن ذلك قتل مئات الآلاف من المواطنين اليابانيين، وفقدان الملايين سكناهم، لتتحول المدن اليابانية إلى أراض محروقة، كما غزا الأمريكيون جزيرة اوكيناوا اليابانية. وفي يوم الخامس من أغسطس عام ١٩٤٥ ألقت الولايات المتحدة القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما، وتلتها بقنبلة أخرى على مدينة نجازاكي يوم التاسع من الشهر نفسه، مما أدى باليابان إلى الاستسلام ومن دون شروط.

فتلاحظ عزيزي القارئ كيف حاولت اليابان منع التسلط الغربي على منطقة شرق آسيا، كما حاولت توحيد المنطقة تحت قيادتها، وتصورت أن غزو جيرانها، والسيطرة على مواردهم الطبيعية، سيؤديان إلى انتصارها في معركتها مع الغرب، ولكن، كما قال رون فون عن سياسات بسمارك في توحيد ألمانيا وانتهائها بدمار الحرب، بأن: «لا أحد يأكل من شجرة اللاأخلاقيات من دون حصانة». فهل سيتعلم العرب من دروس التاريخ؟ ولنا لقاء.

* سفير مملكة البحرين باليابان

أفق

عبدالله خليفة

صعودُ وهبوطُ الأفكارِ التحديثية

تتمكن الأفكارُ الدينية المحافظة من الصعود لعدم قدرة الأفكار التجديدية على التطور والتغلغل في البناء الاجتماعي، حين تعجز أن تكوّن لها حضوراً بين الرجال والنساء.

في العصر العباسي والعصر الراهن نلاحظ هذا التماثل، فحين عجزتْ أفكارُ الفرق عن تغيير العلاقات المتخلفة بين الرجال والنساء، ولم تستطعْ أن تغيرَ واقع المزارعين الذين وقع عليهم العبءُ الأكبرُ في توفير الخراج، فشلت هذه الفرق وتراجعت ولم تفدها الأعمالُ العنيفة أو القيام بانقلابات في جماعاتها.

وكونها فرقاً يحدد طابعها القبلي، حيث سيد القبيلة هو المتنفذ، وهذا ما ما جرى ويجري الآن.

في العصر الحديث انتفختْ الأحزابُ بالشعارات الحديثة لكنها مجرد شعارات، فاستمر الرجال في إدارة السياسة والبيوت، ولم تستطع شعارات المساواة أن تدخل حيز التطبيق، فالأحزاب ذكورية والبيوت تهيمن عليها الذكورة، والتقدمي تقدمي في المقهى لكن ليس في البيت.

ورغم ضخامة التحولات والانقلابات العسكرية لكنها لم تتغلغل في الأبنية الاجتماعية، الانقلابيون لا يختلفون عن الفرق الإسماعيلية والقرمطية والزيدية والسنية في تحريك سطوح الحياة الاجتماعية، وإثارة غبار سياسي كثيف، لكنهم في مسائل الوجود الاجتماعي وعلاقات الرجال بالنساء والإقطاع بالفلاحين والعقول بالنصوص الدينية، والدول بالشعوب يظلون كما كان السابقون.

وكان الانقلابيون يستطيعون تحريك الحياة نظراً لسيطرتهم على بعض الموارد، لكن الموارد تنفد مع كثرة الانقلابات والحروب والصراعات، وتظهر مراكزُ مواردٍ جديدة في البلدان الصحراوية والقروية، وتستطيع هذه البلدان أن تستغل مواردها هي الأخرى في تعزيز ثقافتها المذهبية المحافظة، وما كان من انهيار في العصر العباسي للفرق (الثورية) المعارضة واستبدالها بالفقه المحافظ والفلسفة اللاعقلانية وتقطيع أجسام الدول العربية الإسلامية الكبيرة حدثَ في عصر الانهيار الثاني الراهن، مع إختلاف طبيعة هذا الانهيار حيث ترافق مع ثروات نفطية، وعولمة رأسمالية واسعة، فتزعزعُ الدُّول كان داخلياً، وحدثت شروخٌ كبيرة في الكيانات المركزية، وتفاقمَ تدهور أحوال النساء فاتسعت ظاهرة الجواري بأشكال (تحديثية) وتراجعت الإصلاحات الزراعية البسيطة التي حدثت في بعض الدول وعاد بعض الأراضي الموزعة سابقاً على الفلاحين، وأصبح الرجال في حريات إجتماعية أكبر.

وتدهورت أنواعُ الآداب والفنون بطغيان الفنون الهابطة، رغم استمرار وتطور الآداب والفنون المعبرة عن واقع الناس، ولهذا فإن الأجناسَ التعبيرية والأفكار المتخلفة التي كانت مواكبة لعصور التدهور عادتْ للظهور ثانية، وغدت التنمياتُ في الأشكال والعمارة الباذخة من جهة وتصاعدت الأزمات السكانية واختناق المدن من جهة أخرى.

لم تستطع الشعوبُ العربية والإسلامية أن تجيب مرةً أخرى عن تحديات الحداثة، فالعلاقاتُ بين الطبقات السائدة والطبقات المسودة ظلتْ كما كانت عبر القَرون، وأشكالُ الحكمِ نائيةٌ عنَ القواعد، والرجالُ مسيطرون والنساء مسيطرٌ عليهن، والأرياف تغرقُ في أزمات الملكيات الكبيرة والتخلف التقني وتدهورت أسعارُ المحاصيل في طبعات جديدة من أزمات الأغذية في العالم، والقطاعاتُ العامةُ التي كانت ذروة تطور المنطقة خلال الزمن السابق توقفت عن التطور أو بيع بعضها.

وطرحت الثوراتُ العربية إمكانية الخروج المحدود من هذا النفق التاريخي التي تسير فيه الأمةُ العربية خاصةً خلالَ قرون طويلة، وكأن ثمة بوادر لعلاقاتٍ جديدة بين الطبقات والأجناس والدول والشعوب، لكن ما هو مطروح وغالب هو فقط في السياسة العامة، والديمقراطية غدت شعاراً في الميادين لا في البيوت وأجهزة الحكم والحقول، وتحولها لتطبيق يحتاجُ إلى ثقافة تنويرية ديمقراطية تعاونية واسعة بين التيارات والمؤسسات كافة، حيث ينبغي تصحيح كل شيء عبر القوانين والبرلمانات وصراع الأفكار والعقول لا صراع الأيدي والأجهزة والسلاح، والتغيير يأتي تراكمياً متدرجاً جماعياً لا انقلابياً فوقياً، وثمار التحول تؤثرُ وتقدم حياةَ الجميع لا أقليات تفوز بالكراسي والنفوذ.

على مدى تقدير الأفكار الحديثة للماضي المضيء ونقد المعتم فيه، وتوسيع حقوق الأغلبيات وأوضاعها المادية والثقافية وتعاون مختلف وجهات النظر لتطوير الواقع كل من رؤيته، واحترام الحريات للتيارات كافة، يمكن للعرب أن يعبروا هذا النفق الطويل.

AbdullaKalifaboflasa@yahoo.com